

الصراع اللغوي بين اللغات

"اللغة العربية أمودجاً"

عزالدين أحمد عبد العالى

جامعة مصراتة

المقدمة

إن أكثر ما اتفق عليه علماء اللغة هو الوظيفة المناطة باللغة وهي: عملية الاتصال مع أفراد المجتمع، ولابد لأي مجتمع بشري من لغة يسلكها حتى تسير الحياة طبيعية، سواء أكانت اللغة صوتية، أم غير صوتية.

ولكن ما يهمننا في هذا الصدد هو اللغة التي تقوم على الأصوات اللغوية الإنسانية، وبنظرة عامة وخاصة من الناحية التاريخية نستطيع ملاحظة أن اللغة وعلى مر العصور والأزمان، لم تكن تسرع على نمط واحد بل يعترضها ما يعترض الناطق بها من تغيير، وتطور، وتأثير، وتأثر، وهذه هي سنة الله في كونه - وفق القاعدة الأصولية التي تقول: "دوام الحال من المحال" - وذلك لتساير الطبيعة البشرية.

ولذا كان ما يعترض اللغة من تغيير حادث أو محدث له عوامل مساندة ومساعدة، ولكي يحدث هذا الأمر فإنه يأخذ زمناً يتراوح بين القصير والطويل، وقد يستمر أجيالاً لتمام، وهذا ما يعرف بـ "الصراع اللغوي" الذي سأحاول عرضه في هذه الصفحات بشكل واضح وسريع، جاعلاً اللغة العربية أمودجاً، وذلك من خلال مبحثين:

الأول: الصراع اللغوي: مفهومه، مراحل، العوامل المتحركة فيه.

الثاني: الصراع اللغوي: بين اللغة العربية وغيرها قديماً وحديثاً.

التمهيد

اللغة كائن حي، يطرأ عليها ما يطرأ على أفراد الكائنات الحية وجماعاتها من احتكاك وصراع وتنازع، وهي أيضاً كائن اجتماعي تنشأ في المجتمع وتترعرع فيه، والمجتمع لا يقوم إلا بها، وقد تقوم لغتان في مجتمع ما، فتتأثر كل واحدة منها بالأخرى ويحدث ما يعرف بـ "الصراع اللغوي" الذي على أثره تتضح نتائج هذا الصراع باختلاف الأحوال، فتكون هناك لغة منتصرة ولغة مغلوبة، مع العلم بأنه هذا ليس بقاعدة ولا مشروطاً في جميع الأحوال، بل قد تعيش اللغتان

جنباً إلى جنب، ولكن هذا التقارب والتجاور لا يمنع من الاحتكاك والتأثر، كما أنه وفي كل الأحوال فإن اللغة المنتصرة لا تخرج سالمة من هذا الصراع، بل إن اللغة المغلوبة تأثر فيها وذلك بأن تدخل فيها الكثير من الألفاظ والتراكيب التي تبقى مستعملة في اللغة المنتصرة¹.

المبحث الأول: الصراع اللغوي

مراحله، العوامل المتحكمة فيه

مراحل الصراع اللغوي:

ككل صراع في هذه الحياة لا يأتي مرة واحدة، أو دفعة واحدة، وإنما يكون على مراحل متباعدة، كل مرحلة منها تيسر وتسهل للمرحلة التي تليها، والتي نستطيع من خلالها استيضاح العوامل المساعدة في تفتيت اللغة المغلوبة والقضاء عليها:

المرحلة الأولى: في هذه المرحلة تطغى مفردات اللغة المنتصرة وتحل محل اللغة المغلوبة شيئاً فشيئاً، وقد يكون الصراع بين اللغتين شديداً وطويل الأمد، كأن تكون اللغة المغلوبة ذات قدر كبير من المفردات تدخل في اللغة الغالبة²، ومن أمثلة ذلك: ما حدث للبلغاريين حينما نزحوا إلى البلقان وامتزجوا بشعوب الصقالبة- وهم شعب بين قسطنطينية وبلغاريا، ويرجعون إلى صقلييا- فقد أخذت لغتهم تندثر تدريجياً أمام لغة هذه الشعوب، وحلت محلها لغة الصقالبة، إلا أن هذا التغلب أو الاندثار لم يتم إلا بصعوبة، واستمرت زمناً طويلاً، كان الصراع فيه عنيفاً، أسفر عن خروج اللغة الغالبة محرفة وبعيدة عن أصولها القديمة بعداً كبيراً³.

أما إذا الصراع ضعيفاً، فإن اللغة المغلوبة لا تظهر أي مقاومة، بل إنها تنصهر في اللغة الغالبة⁴، ومن أمثلة ذلك: اللغة العربية بعد انتصارها على اللغة الإغريقية، فقد خرجت الأولى من ذاك الصراع سالمة ولم تكد تتأثر بشيء من خصائص اللغة الإغريقية اللهم إلا عدداً محدداً من الكلمات⁵.

المرحلة الثانية: في هذه المرحلة يكون التغيير في مخارج الأصوات، وذلك بأن يقترب النطق للأصوات من خلال الألفاظ أو الكلمات لأصوات اللغة الجديدة شيئاً فشيئاً، إلى أن يوافق أو يطابق الصوت المنطوق، للأصوات اللغة المنتصرة.

¹ علم اللغة، د. علي عبدالواحد وا.ج، ص 229.

² المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، رمضان عبدالنواب، ص 174.

³ علم اللغة، ص 230.

⁴ المدخل إلى علم اللغة، ص 174.

⁵ الفصحى لغة القرآن، د. أنور الجندي، ص 65.

المرحلة الثالثة: في هذه المرحلة تقوم اللغة المنتصرة بفرض قواعدها وقوانينها الصرفية والنظمية- النحوية- وبذلك يتم الإجهاز على اللغة المغلوبة ومحوها، وذلك لكون القواعد هي الحصن المنيع لأي لغة، وقد وصفها بذلك الدكتور علي وايفي فقال: "أشبه بالقلعة التي يحتمي بها فلول الجيش المنهزم ويقاوم عنها حتى آخر رمق، والتي يتم بسقوطها استيلاء العدو على البلاد"⁶.

فالذي يجب أن يؤخذ في الاعتبار أن النصر لا يتم في هذه المرحلة إلا بعد زمن طويل قد يصل إلى أكثر من أربعة قرون، فالرومان أخضعوا بلاد الجول - فرنسا وما جاورها المتكلمين باللغة السلتيية - تحت سيطرتهم في القرن الأول الميلادي، ولكن لم تتم الغلبة للغة اللاتينية إلا في القرن الرابع⁷.

العوامل المتحكمة في الصراع اللغوي:

ينشأ الصراع اللغوي عن عوامل كثيرة، من ذلك الصراع الناتج عن الحروب والغزو، فإذا حدث غزو بين شعبين، وكان الشعب الغازي يتكلم لغة غير لغة أصحاب البلاد الأصليين، فإنه مع مرور الأيام والزمن الصراع بين اللغتين، وليس من الضروري أن ينتهي هذا الصراع موافقا لنتيجة المعركة الحربية، فقد يكون الشعب المغلوب أصلب عودا وأكثر تمسكاً بلغته، أو قد يكون عكس ذلك بأن يكون ضعيفا مستسلماً، كما أنه من عوامل الصراع اللغوي الناتج عن التجاور بين شعبين مختلفين في اللغة، مما يتيح لأفرادهما فرص الاحتكاك المادي والثقافي، وفي هذه الحال يتحقق أحد الاحتمالين الآتيين:

إما أن تنتصر إحدى اللغتين على الأخرى وتبج هي اللغة السائدة.

إما أن تستويا في القوة، فتبقى كل منهما محتفظة بشخصيتها وميزاتها⁸.

ويتحكم في هذه النتيجة أحد العوامل الآتية، منفردة، أو مجتمعة:

1. التقدم الحضاري. 2. التفوق المادي. 3. الاتحاد أو التقارب في الأسرة اللغوية.

فإذا تساوى شعبان في الناحية الحضارية، بأن كانا متخلفين ثقافيا، فإن نتيجة الصراع بينهما الاعتماد فيها يكون على كثرة العدد، سواء أكانت لغة الغالب أم لغة المغلوب حربياً، أو بمعنى أوضح لغة الأصيل أو الدخيل؛ وذلك لأنه عند انعدام النوع، يكون التحكم للكم في مصير الأمور.

⁶ علم اللغة، ص237.

⁷ المصدر السابق، ص233.

⁸ مقدمة لدراسة فقه اللغة، د. محمد أحمد أبو الفرج، ص117.

مثال على ذلك: عند ما زحف الإنجليز السكسونيين من أواسط أوروبا إلى إنجلترا، لم تلبث لغتهم أن تغلبت على اللغات السلتيّة التي كان يتكلم بها السكان الأصليون؛ وذلك لأن عدد السلتيين لم يكن شيئاً أمام عدد الغزاة، وكلا الشعبين كان همجياً منحطاً في مستوى الحضارة.⁹ أما إذا كان الشعب الغالب أرقى حضارة وثقافة من الشعب المغلوب، فتكون السيطرة والتمكّن للتفوق الكيفي، بمعنى أنه لا مكانة للكّم، شريطة دوام الغلبة والسيطرة زمناً كافياً يمكن معه تحقيق نتيجة حاسمة للصراع اللغوي.

مثال على ذلك: فتوحات العرب في در الإسلام للشام والعراق ومصر، يواكبها اكتساح اللغة العربيّة لجميع اللغات التي كانت سائدة في تلك البقاع، فاكتسحت العربيّة القبطية في مصر، والبربرية في شمال إفريقيا، وغيرها.¹⁰

أما مثال عدم تغلب إحدى اللغتين على الأخرى لاختلاف الأسرة اللغوية: فقد تكون اللغة العربيّة مع اللغة الإسبانيّة أظهر مثال، حيث إن بقاء العرب في الأندلس دام سبعة قرون إلا أن اللغة العربيّة لم تتمكن من الانتصار على اللغة الإسبانيّة؛ كون العربيّة من أسرة لغوية مغايرة، وكذلك السيطرة العثمانية على الوطن العربي وامتدادها لقرون عديدة؛ لم تستطع القضاء على اللغة العربيّة وإحلال اللغة التركيّة محلها؛ لأن التركيّة ليست بأي حال من لغات الحضارات الكبرى بخلاف العربيّة، ونستطيع أن نرجع ذلك إلى أن هناك عاملاً مسانداً يتمثل في القيمة الذاتية للغة، لأن بعض اللغات لها عامل الهيبة والمكانة في الحضارات الإنسانيّة فتبقى محافظة على سلامتها ومدافعة عنها.¹¹

ولكن مع ذلك فإن عدم تغلب إحدى اللغتين لا يحول دون تأثر كل منهما بالأخرى، فقد تركت اللغة العربيّة آثاراً واضحة في اللغة الإسبانيّة، وكذلك الحال مع اللغة التركيّة، والعكس.

المبحث الثاني: الصراع اللغوي

بين اللغة العربيّة وغيرها قديماً وحديثاً

أولاً: الصراع بين العربيّة وغيرها قديماً:

أتيح للغة العربيّة فرص كثيرة للاحتكاك بلغات آخر، من فصيلتها ومن غير فصيلتها، وذلك من خلال امتزاج العرب بكثير من الشعوب عبر الفتوحات الإسلاميّة على مرّ العصور،

⁹ علم اللغة، ص230.

¹⁰ مقدمة لدراسة فقه اللغة، ص117.

¹¹ المدخل إلى علم اللغة، ص172.

فتصارعت جراء ذلك مع العديد من اللغات التي كانت مهيمنة على تلك البقاع، فدخلت في صراع مع الآرامية في سوريا، ولبنان، والعراق، والقبطية في مصر، والبربرية في شمال أفريقيا، والفارسية في إيران، والتركية في جل الأراضي الإسلامية.

أما النتيجة فكانت متباينة فقد قضت اللغة العربية على الآرامية، والقبطية، والبربرية، وخرجت اللغة العربية متأثرة باللغات التي صرعتها وهذا التأثير يختلف باختلاف اللغات من حيث القوة والضعف.

أما عن صراع العربية مع الفارسية، فقد أثرت كل منهما في الأخرى، وأيضاً تأثرت كل منهما بالأخرى، إلا أن أثر العربية في الفارسية كان أوسع وأشمل من أثرها في العربية.

كما أن التركية تأثرت باللغة العربية وخاصة في المفردات، إلا أن أثر التركية في العربية لم يكن كبيراً اللهم إلا القليل القليل في بعض اللهجات العامية المتشعبة عن اللغة العربية¹².

ومما يجب التأكيد عليه أن اللغة العربية في تلك البلدان لم تقرب بحد السيف كما يسوق لذلك بعض المفرضين، وإنما كان صراعاً لغوياً يمر بالمراحل الطبيعية التي تحكمها سنن الاجتماع التي تدرجت مرحلة مرحلة، فكانت البداية بمرحلة العزلة اللغوية لتلك الشعوب، التي لم تمتد طويلاً، ثم أردفت العزلة بالهجرات الجماعية لبعض القبائل العربية، أو جماعات منها إلى الأقطار المفتوحة، ومع هذا الاحتكاك مع تلك الجماعات، نفذت اللغة العربية إلى الموطن الجديد، ثم ما لبث هذا الاحتكاك أن تجاوزته العربية من خلال التبادل أخذاً وعطاءً، وتأثيراً وتأثراً، لتتنصر على اللغات الأصيلة، التي تركت المجال لهذه اللغة القومية، لغة الحكم والتشريع¹³.

وأما عن أثر اللغة العربية في اللغات الشرقية كالفارسية، والأفغانية، والهندستانية، فجاء من ناحيتين:

الأولى: من ناحية المعاملات الفقهية، والتنظيمات السياسية، والمفاهيم الأخلاقية والدينية. الأخيرة: من ناحية الحرف العربي، باعتباره أداة لكتابة لغة المحيط الإسلامي، فأصبحت الفارسية والتركية وغيرهما تكتب بالحروف العربية¹⁴.

ثانياً: الصراع بين العربية وغيرها حديثاً:

لقد واجهت العربية صراعات عديدة كان من أهم أسبابها الحملات الحربية الصليبية إلا أن العربية استطاعت المحافظة على جوهرها ومعناها ومرجع ذلك أن الله سبحانه وتعالى تولى

¹² علم اللغة، ص123.

¹³ لغتنا والحياة، د. بنت الشاطي، ص62-63.

¹⁴ اللغة والمجتمع، د. محمود السمران، ص123.

حفظها من خلال الدستور السماوي الذي نزل بلغتها فقد قال تعالى (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)، فكان أشد ما واجهته العربية في العصر الحديث هو الصراع اللغوي، الذي صحبه صراع حربي بمعناه الشمولي، كان الهدف الرئيس منه محاصرة العربية والقضاء عليها، إلا أنه وفي أشد الأوقات عسرا، وفي أكثر المعارك ضراوة، ظلت اللغة العربية تعتمد على حصونها المنيعة التي لا تقهر، والمتمثلة في المساجد، وذلك من خلال حلقات تدارس القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف.

وفي أواخر القرن التاسع عشر، شهدت مصر- مثلاً - بداية نهضة علمية وفكرية، كان لها آثارها المهمة في إبراز مكانة العربية كلفة للعلم والفكر في جميع مجالاته وفروعه، وأصبحت التجربة المصرية تجربة دولية رائدة، حيث وصل وفد ياباني إلى القاهرة سنة 1834م؛ لدراسة التجربة المصرية في جعل اللغة العربية لغة مختلف العلوم والتقنيات، فقد كانت العلوم الطبية مثلاً تدرس باللغة العربية في القصر العيني، وذلك للإفادة منها في مشروعهم اللغوي لجعل اللغة اليابانية لغة الحضارة والعلوم الحديثة، وقد استمرت التجربة المصرية حتى احتلال الجيوش البريطانية لمصر سنة 1892م، وما نشأ عنه من تحول التدريس باللغة العربية إلى اللغة الإنجليزية، ودخول مصر في صراع مرير مع اللغة الأجنبية من ناحية، ومع العامية التي كانت تجد دعماً وعوناً من سلطات الاحتلال الأجنبي من ناحية أخرى¹⁵.

أما عن المغرب العربي فإن الاستعمار لم يأل جهداً في محاولة سلخه عن القومية العربية، والشخصية الإسلامية، ومع إعلان معارك التحرير والاستقلال ثم الإعلان بأن اللغة العربية هي اللغة الأولى بتلك الدول، إلا أن التأثير يختلف من قطر إلى آخر فلنلاحظ أن تونس أشد تأثر من ليبيا، وأن الجزائر والمغرب أشدهما تأثراً، حيث نجد أن المتحدث "الجزائري، أو المغربي" يخلط في كلامه بين مفردات وأساليب عربية بأخرى فرنسية.

الخاتمة

بعد هذا العرض السريع للصراع اللغوي نستطيع أن نخرج بنتائج من أهمها:

- أن القضاء على أي لغة لا يكون أمراً سلساً سهلاً وإنما يتم بمراحل تسير وفق التطور والتغير في حياة المتكلمين.

¹⁵ قضايا العربية على مدرج القرن الواحد والعشرين، د. عبدالكريم خليفة، ص13.

- أن أهم العوامل المساندة للصرع اللغوي على مر التاريخ هي ثلاث: 1. التقدم الحضاري
- 2. التقدم المادي 3. الاتحاد والتقارب في الأسرة اللغوية.
- أنه ومن خلال هذا العرض لا يمكن الجزم بأن هناك مغلوب ومنتصر في اللغة، وذلك لكون اللغة المنتصرة لا تخرج سليمة من هذا الصراع.
- أن الاستعمار الحديث يسعى لتنمية الصراع اللغوي نكل جديد من خلال عاملين من العوامل التي سبق الإشارة إليها وذلك لتحكمه في التطور العلمي ومستحدثات الحياة.
- أن الاستعمار يسعى إلى تعزيز العوامل الداخلية من خلال اللهجات المحلية لكونها تغذي المواقف النفسية والجوانب الانهزامية داخل اللغة الواحدة.

المصادر والمراجع

1. علم اللغة، د. علي عبدالواحد وايفي، دار نهضة مصر، القاهرة، الطبعة التاسعة، دت
2. فصحي لغة القرآن، د. أنور الجندي، الموسوعة الإسلامية 10، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982م، د. ط
3. قضايا العربية على مدرج القرن الواحد والعشرين، د. عبدالكريم خليفة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، د. ط، دت
4. لغة والمجتمع رأي ومنهج، د. محمود السعران، مطبعة الإسكندرية، الطبعة الثانية، 1963م.
5. لغتنا والحياة، د. بنت الشاطئ عائشة عبدالرحمن، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الأولى، 1971م.
6. مدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، رمضان عبدالنواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثانية 1985م.
7. مقدمة لدراسة فقه اللغة، د. محمد أحمد أبو الفرج، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، 1996م.



